الكبير الذي سيقيمه، ولم يكن لديه سوى عامين. سيكتفي بإنشاء حي جديد وتطوير جزء من حي قديم، مؤقتا.

وللدقة لا بد من الإشارة أن عملية الإعمار المباغت لم تكن جديدة تماما، كان جده ـ الحالم أيضا بمدينة جديدة ـ أول من استقدم «المعلّمين الروم» لإدخال المباني الرومية إلى الديار المصرية فأعطى الأهالي ما يمكن أن نسميه بلغتنا الحالية دورة تمهيدية تعدهم لمشهد تدمير المباني الأثرية لفتح سكة جديدة، أقصد مشهد المعاول والمهدّات والجرّافات وهي تقتلع بيوتا ومساجد وأسبلة وأشجارا وأبوابا ومشرَبيات، وقبورا أيضا، ولكن كما أسلفت، لم يُتح للحفيد متسع من الوقت للهدم، أو أن وزير أشغاله، وكان رجلا نابغا رغم كل شيء، فضّل أن يركّز الجهد على التخطيط لمدينة جديدة، فلم يهدم سوى جزء يسير واتسع في الجديد المجاور.

في هذا الجديد المجاور المعروف الآن بوسط البلد، والذي كان اسمه حي الإسماعيلية، ولدت. وفي نفس هذا الحي، في بناية مجاورة للبناية التي ولدت فيها، أجلس الآن للكتابة بعد أكثر من قرن على رحيل إسماعيل الذي أمر بإنشائه، ورحيل وزير أشغاله علي مبارك ومساعده محمود الفلكي، اللذين أشرفا على تخطيطه. كان هذا الحيّ الجديد، القاهرة الرومية كما يسميها بعض المؤرخين، يُخلّف وراءه القاهرة الإسلامية، يتركها مستتبة في ماضيها، قانعة به أو غارقة فيه، ويتطلع إلى عالم جديد، يسحب إليه المدينة بمؤسسات حكمها وقصور حكامها ومراكزها التجارية، ينقلها غربا ـ لا مجاز هنا ـ أقصد الغرب الجغرافي، حيث تمتد قاهرة إسماعيل من ميدان عابدين وميدان العتبة إلى النيل غربهما، ومن شاطئ النيل إلى الجزيرة غربه. نزل الوالي من القلعة، وانتقل مقر الحكم إلى قصر عابدين، حيث الواجهة الإيطالية يتصدرها سور وبوابات من مشغول الحديد، يعلوها التاج الملكي والحرف الأول من اسم إسماعيل بالأبجدية اللاتينية مشكّل بخالص الذهب، أما قلعة الجبل وأسوارها الحجرية الخشنة فبقيت في أعلي الهضبة تنتظر إدراجها في ملف الآثار.